رد الأذهان إلى معاني القرآن لأبي بكر جومي: دراسة نماذج مختارة.

عبد السلام تاسع موسى
atasiu@stud.iuiu.ac.ug
07038639048
SHA'AWA UMAR YAKASAI shaawayakasai@gmail.com 08032052414

الملخص

يعتبر الشـيخ أبوبكر جومي(1924-1992م) من أبرز علماء غرب أفريقياء الذين جمعوا بين التفسـير السـهل والحرص على الحفاظ على جماليات القرآن البلاغية، ويشـهد على ذلك كتابه: "رد الأذهان إلى معاني القرآن" الذي يهدف إلى تقريب معاني القرآن للعامة والطلبة الناطقين بلغتي العربية والهوسا، حيث اعتمد الشيخ جومي فيه على التفسير بالمأثور واللغة. ومع أن الكتاب مختصر لكن يمكن طرح سـؤال وهو: (هل يمكن اختصـار التفسـير دون الخوض في الملامح البلاغية من البيان والمعاني والبديع التي تميز النص القرآني؟.

لذلك تأتي هذه الورقة للإجابة هادفة إلى الكشف الأساليب البلاغية التي احتفظ بها جومي في نماذج مختارة لبعض من آيات: (سـورة البقرة، آل عمران والنسـاء) لدراسـة الآيات التي ورد فيها إشـارات بلاغية من التشبيه والحقيقة والمجاز وكذلك النداء البلاغي، وذلك في مبحثين.

المبحث الأول: ورد فيه الحديث عن ترجمة الشـيخ أبي بكر جومي ومنهجه في كتاب رد الأذهان إلى معاني القرآن، وأما المبحث الثاني فيتناول الحديث عن بعض من الملامح البلاغية التي أشـار إليها الشيخ في تفسيره، ثم الخاتمة وقائمة المصادر.

المقدمة:

القرآن الكريم أوضح نص بلاغي في اللغة العربية، حيث يجمع بين الدقة اللغوية والفصاحة الأسلوبية والمعاني الواضحة، وكان كثير من المفسرين يتبعون منهج التحليل البلاغي لفهم النصوص القرآنية لتقريب المعاني إلى الأذهان، منهم المطولين والمختصرين في ذلك، ويستند هذا العمل إلى دراسة عدد من الآيات القرآنية في سـورة البقرة وآل عمران والنسـاء مركزا على الأسـاليب البلاغية التي استخدمها الشيخ أبو بكر جومي في كتابه المسمى: "رد الأذهان إلى معاني القرآن"، من هنا جاء هذا العمل المختصر بعنوان: (الملامح البلاغية في كتاب رد الأذهان إلى معاني القرآن لأبي بكر جومي: دراسة نماذج مختارة)، وأسأل الله أن يوفقني فيه لما يحب ويرضى.

المبحث الأول:

نبذة عن الشيخ أبي بكر جومي وكتابه رد الأذهان:

المطلب الأول: ترجمة أبي بكر جومي وسياقه العلمي

هو أبو بكر بن محمود بن محمد بن علي براء البدوي. وتعد هذه السلسلة سلسلة علماء مشاهير.

ولد الشيخ أبو بكر جومي في اليوم الخامس والعشرين من رمضان، وهو آخر جمعة من هذا الشهر الكريم، سنة 1344هـ الموافق 7 نوفمبر 1924م. ونشأ في حجر والديه، وكان أبوه يتعهده ويربيه تربية خاصة ويصحبه معه في كل حالاته تقريبا. وكان يمنح له حرية السؤال والاستفسار، بل ويستشيره في بعض الأمور مما جعل في نفسه الثقة والاعتزاز والترفع عن سفاسف الأمور، وهيأ له فرصة الاستفادة من علوم والده وآدابه وتجاربه المتنوعة النافعة[150].

أما جده علي براء، فمن العرب الرحالة الذين كانوا يرعون المواشي. وقد وصل إلى منطقة سكتو بعد أن وطد الإسلام أركانه فيها، وكان له ثلاثة أولاد، أحدهم هو محمد الذي عرف بمحمد مرنا وأنجب أحد عشر ولدا لم يعش منهم إلا محمود، والد المترجم له.

أبو بكر محمود جومي يُعدّ من أبرز العلماء والدعاة في نيجيريا وغرب إفريقيا في القرن العشرين، وقد ارتبط اسمه بالحركة الإصلاحية والدعوية، وبالجهود العلمية الرامية إلى تصحيح المفاهيم الدينية، وربط الناس بالقرآن الكريم فهمًا وعملاً. نشأ في بيئة علمية تقليدية، وتلقّى علومه الشرعية على أيدي عدد من علماء بلاده، ثم برز لاحقًا بوصفه خطيبًا ومفسّرًا ومصلحًا اجتماعيًا.

وقد تأثّر تكوينه العلمي بالسياق الديني والثقافي لغرب إفريقيا، حيث يغلب التعليم القرآني، والاهتمام بالوعظ والإرشاد، ومعالجة قضايا المجتمع الدينية والأخلاقية. وهو ما انعكس بوضوح في مؤلفاته وخطابه العلمي، الذي يتسم بالبساطة، والوضوح، والبعد عن التعقيد الاصطلاحي، مع الحرص على إيصال المعنى القرآني إلى عامة الناس.

المطلب الثاني: التعريف بكتاب ردّ الأذهان إلى معاني القرآن

كتاب ردّ الأذهان إلى معاني القرآن يعتبر من أبرز مؤلفات أبي بكر جومي، وهو كتاب في تفسير القرآن الكريم، يهدف في الأساس إلى تقريب معاني الآيات، وتوجيه القارئ إلى مقاصدها العامة، بأسلوب يجمع بين التفسير والوعظ والإرشاد. ولا يلتزم المؤلف فيه بمنهج التفاسير التحليلية الموسّعة، ولا يتقيد بتقسيمات علم البلاغة أو اللغة، وإنما يركّز على بيان المعنى، واستحضار الهداية القرآنية[151].

[150] - محمد المنصور إبراهيم، الشيخ أبوبكر محمود جومي: حياته مواقفه وآراؤه، قسم الدراسات الإسلامية بجامعة عثمان بن فودي، 2000م، ص:20-21.

[151] - الخذراوي، عبد العاطي أبو العيد، نشأة التفسير في نيجيريا، ص: 11 منشور على شبكة الألوكة، بموقع: www.alukah.net

المطلب الثالث: منهج المؤلف في التفسير وطبيعة خطابه

يتّضح من خلال قراءة ردّ الأذهان إلى معاني القرآن أن المؤلف ينتمي إلى نمط التفسير الإصلاحي الإرشادي، الذي يجعل غايته الأساسية توجيه القارئ إلى فهم المعنى القرآني بما يخدم إصلاح العقيدة والسلوك. ولذلك يغلب على تفسيره: وقد كُتب الكتاب بلغة واضحة، وأسلوب مباشر، يراعي مستوى المتلقّي، ويعالج القضايا العقدية والسلوكية التي تهمّ المجتمع المسلم في بيئته. ويظهر من خلال الكتاب اعتماد المؤلف على:

- تفسير القرآن بالقرآن في بعض المواضع.
- والاستشهاد بالسنة النبوية إجمالًا.
- مع الاستئناس بأقوال بعض المفسّرين دون توسّع في الخلاف.

ومن هنا، فإن ما يرد في تفسيره من ملاحظات تتصل بأسلوب الآية أو تركيبها لا يُقصد به تقرير قواعد بلاغية، وإنما يأتي في سياق خدمة المعنى وتقريره، وهو ما يبرّر اعتماد هذا البحث على مصطلح الملامح البلاغية.

رد الأذهان إلى معاني القرآن: وهو كتاب تفسير للقرآن الكريم، يقع في مجلدين مشى فيه على نحو تفسير الجلالين – جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي- فيفسر المفردات ويذكر مجمل المعاني وأسباب النزول، ويذكر الموضوع الرئيسي الذي تدور حوله السورة في مجملها. ويعلق على القصص ويذكر الفوائد المستنبطة من الآيات، ويقلل من التعليلات اللغوية. وقد طبع هذا الكتاب أولا في بيروت على نفقة أحد المحسنين السعوديين – هو السيد أحمد باماعود وذلك سنة 1979م. ثم طبعه الرئيس النيجيري شيهو شاغاري ثم أعاد طباعته التاجر الحاج إبراهيم كانو. ثم طبعه خامسا الرئيس النيجيري إبراهيم بابنغدا، ثم الحاج آدم طنجوما الطبعة السادسة[152].

المبحث الثاني:

دراسة بعص من الملامح البلاغية في كتاب رد الأذهان:

أولا: التشبيه:

والتشبيه في اللغة معناه التمثيل: وفي اصطلاح البلاغيين فكما يذكر الهاشمي بأنه عقد مماثلة بين أمرين، أو: أكثر، قصد اشتراكهما في صفة: أو: أكثر، بأداة: لغرض يقصد المتكلم للعلم[153].

ورد التشبيه في كثير من الآيات القرآنية منها

[152] - الخذراوي، عبد العاطي أبو العيد، نشأة التفسير في نيجيريا،المرجع السابق، ص: 11

[153] - الهاشمي، أحمد بن إبراهيم، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، المكتبة العصرية ببيروت، بدون تاريخ، ص: 219.

1) قوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59)}[154]

ويفسر الشيخ أبو بكر جومي في ردّ الأذهان "أن شأن عيسى عليه السلام الغريب كشأن آدم في خلقه من غير أب وهو من باب تشبيه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأوقع في النفس"[155].

وهذا من الإشارات البلاغية التي نبّه إليها الشيخ أبو بكر جومي في تفسيره حيث عدّ هذا الأسلوب من باب تشبيه الغريب بالأغرب الذي هو: "مقارنة شيئ غريب بما هو أكثر غرابة منه"، فيلاحظ أنه شُبِّه خلق عيسى من غير أب بخلق آدم من غير أب ولا أم، ليكون ذلك أقطع للخصم وأوقع في النفس.

2) قوله تعالى: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19)}

فعند تفسير هذه الآية يقول الشيخ: "كذلك هؤلاء إذا نزل القرآن وفيه ذكر الكفر المشبه بالظلمات، والوعيد عليه المشبه بالرعد، والحجج البينة المشبهة بالبرق، يسدون آذانهم لئلا يسمعوه فيميلوا إلى الإيمان وترك دينهم"[156].

وهذا أيضا من الإشارات البلاغية الظاهرة في تفسير أبي بكر جومي حيث نبّه إلى أن الظلمات ترمز إلى الكفر، والرعد إلى الوعيد والتهديد، والبرق إلى الحجج البيّنة. ويُعدّ هذا من قبيل التشبيه التمثيلي الذي هو: "ما كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد"[157].

ثانيا: الحقيقة والمجاز:

يذكر الجرجاني معناهما بأن: "كلُّ كلمة أريد بها ما وقعتْ له في وَضْع واضع، وإن شئت قلت: في مُواضعة، وقوعاً لا تستند فيه إلى غيره فهي حقيقة، كلُّ كلمة جُزْتَ بها ما وقعتْ به في وَضْع الواضع إلى ما لم توضع له، من غير أن تستأنف فيها وضعاً، لملاحظةٍ بين ما تُجُوّز بها إليه، وبين أصلها الذي وُضعتْ له فيوضع واضعها، فهي مجاز[158]".

فالقرآن الكريم يحوي كثيرا من الألفاظ الدالة على الحقيقة على ما جرى به وأخرى على المجاز، ومن أمثلة ذلك:

1) قول الله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1)}[159]

---

[154] - سورة آل عمران، آية رقم: 59

[155] - جومي، رد الأذهان، المرجع السابق، ص: 72.

[156] - جومي، رد الأذهان، المرجع السابق، ص:5.

[157] - الهاشمي، جواهر البلاغة، المرجع السابق، ص: 241.

[158] - الجرجاني، عبد القادر بن عبد الرحمن، أسرار البلاغة، مطبعة المدني بالقاهرة، بدون: ط و ت، ص: 350-352.

[159] - سورة النساء، آية رقم: 1.

في هذه الآية يقول الشـــيخ جومي: "ولفظ الناس يشـــمل الذكور والإناث حقيقة والنداء خطاب يعم حكمه المكلفين عند النزول ومن سـينتظم في سـلكهم من الموجودين والحادثين بعد ذلك، فالإجماع منعقد على أن آخر الأمة مكلف بما كلف به أولها."[160]

فهنا يقرر الشيخ جومي أن لفظ لفظ "الناس" في الآية السابقة مستعمل فيما وضع له، وهو شموله جميع المكلفين الذكور والإناث.

2) قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـــالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَـــابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25)}

وجاء في رد الأذهان أن: "الأنهار أي المياه، والنهر هو الموضـــع الذي فيه الماء، لأن الماء ينهره أي يحفره، وإسناد الجري إليه مجاز"[161].

يؤكد أن هذا من باب إسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقي، لأن النهر في اللغة هو المجرى المحفور لا نفس الماء، وهو من المجاز العقلي كما يذكر السكاكي: " إسناد الفعل إلى المكان من المجاز العقلي إذا كان الفعل في الحقيقة لغيره"[162].

ثالثا: النداء:

والنداء: هو طلبُ المتكلم إقبال المخاطب عليه بحرف نائب مناب «أنادي» المنقول من الخبر إلى الانشـــاء - وأدواته ثمان الهمزة، وايّ، ويا، وآي، وأيَا وَهيا، ووا[163]. وقد ورد أنواع كثيرة من النداء البلاغي المشار إليها في تفسير الشيخ أبو بكر جومي، منها:

الاختصاص الذي هو ذكر اسم ظاهر بعد ضمير لأجل بيانه، ويعني كذلك قصر الخطاب على فئة بعينها دون غيرها، مع قيام المقتضي للتعميم، لغرضٍ بلاغيٍّ يقتضـــيه المقام، وقد يكون الغرض تشريفا أو توبيخا أو إقامة للحجة على المنادى[164].

ومثاله في قوله تعالى: {يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40)}[165]

[160] - جومي، رد الأذهان، المرجع السابق، ص: 97.

[161] - جومي، رد الأذهان، نفس المرجع، ص: 7.

[162] - السكاكي، يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 1407هـ، ص 179.

[163] - الهاشمي، جواهر البلاغة، المرجع السابق، ص: 89.

[164] - الهاشمي، جواهر البلاغة، المرجع السابق، ص: 90.

[165] - سورة البقرة، آية رقم: 40.

فعندما يفسر الشيخ هذه الآية يقول: "ثم خصص النداء لبني إسرائيل لأنهم أعلم الناس ذلك الوقت[166]"، فهنا إشارة إلى أن تخصيص بني إسرائيل بهذا النداء إنما هو لإفحامهم، لأنهم كانوا يعلمون رسالة النبي صلى الله عليه في كتبهم فلا يسعهم إنكارها.
ومثال آخر في قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21)}
سبق أن النداء يكون أحيانا للتنبيه، لذلك يقول الشيخ أبو بكر جومي عند تفسير هذه الآية: "النداء في الأصل طلب إقبال المنادى، والمراد به هنا التنبيه، والمقصود بالناس جميع المكلفين الموجودين"[167]

الخاتمة:

إن كتاب رد الأذهان إلى معاني القرآن للشيخ أبي بكر جومي تفسير يعتني بالجانب البلاغي في تحليل معاني الآيات القرآنية بدون إسهاب، وإنما يرمز إليها عند الحاجة، فهذه الورقة حاولت جمع الملامح والإشارات البلاغية في هذا الكتاب فيما يتعلق بالتشبه والحقيقة والمجاز وكذلك النداء، وأوصي الباحثين الأكاديميين باستخراج هذه الإشارات وإيضاحها بطريق أكثر تفصيلا مع مقارنتها بتفسير بعض العلماء المعاصرين.

المراجع والمصادر

القرآن الكريم.

الجرجاني، عبد القادر بن عبد الرحمن، أسرار البلاغة، مطبعة المدني بالقاهرة، بدون: ط و ت.

جومي، أبو بكر محمود، رد الأذهان إلى معاني القرآن، مؤسسة غومبي للتجارة، بدون طبعة وتاريخ.

الخذراوي، عبد العاطي أبو العيد، نشأة التفسير في نيجيريا، ص: 11 منشور على شبكة الألوكة، بموقع: www.alukah.net.

السكاكي، يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 1407هـ.

محمد المنصور إبراهيم، الشيخ أبوبكر محمود جومي: حياته مواقفه وآراؤه، رسالة ماجستير، قسم الدراسات الإسلامية بجامعة عثمان بن فودي، 2000م.

[166] - جومي، رد الأذهان، المرجع السابق، ص: 9.

[167] - جومي، رد الأذهان، المرجع السابق، ص: 5.

الهاشمي، أحمد بن إبراهيم، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، المكتبة العصرية ببيروت، بدون تاريخ.